إعداد : محمد التميمي mohammadaltamimi@hotmail.com

السوفسطائية الساذجة أو اللادينية العربية

بقلم الفيلسوف : أبو يعرب المرزوقي

تمهيد

ليس هذا العمل ردا على اللادينيين العرب . و لا هو حتى رد لموقفهم ؛ فكلامهم يغنيك بتهافته عن هذا الهم . و موقفهم لسذاجته يغريك بمازحتهم . لذلك فهو نزهة فكرية في أمر تمتعت بجدية السذاجة التي تغلب على أصحابه لأنهم لو قرئوا القرآن حقا وفهموا إعجابه لهالهم خلطهم بين تبر التدين وترابه . ذلك ما أغراني بالسؤال عن ضمائر هذه الترعة ذات الوهن المنطقي الذي يراه حتى العميان و الضحالة الفكرية التي ليس دونها هذيان . والغريب أن منظومتها البسيطة التي لو أدركها اللادينيون العرب لاكتشفوا أنهم أصلانيون حتى النخاع استبدلوا عقائد العجائز التي ربوا عليها بسقط المتاع فضلا عن كون كل حججهم و استدلالاتهم لا تعدوا أن تكون من احتجاج الأطفال الذين لم يجدوا ما كانوا يحلمون به فأصبحوا فيلة تهدم الفخار الراقي لجهلهم بالمراقي .

و يمكن حصر هذه الضمائر في خمسة مزاعم غير واعية أصحابها بمقدماتها و شروطها الدالة على عكس ما يزعمون أنفسهم به قائلين . و سنكتفي بتحليل أولها خلال علاج آخرها لكونهما متحدين بالجوهر إذ الأول هو المسمى و الثاني هو الاسم حتى نترك البقية لمن هم منهم أقل غفلة علهم يدركون خواء الحفلة في هذا الموقع المدقع اعتمادا على ما قدمنا من مدفع :

١- زعم نفي وجود الله : غفلة اللادينين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن الإلحاد تتريهية (التدليل على العدل الإلهي) سلبية ذات مستويين : تتريه لا واع هو الشكوى من الشر في الوجود و امتناع نسبة ذلك للإله من دون اعتباره عاجزا و تتريه واع هو تأليه مجرى الوجود تحت مسمى الضرورة والصدفة .

و التتريه الأول إفراط آل إلى نفي وجود الله لئلا ينسب إليه ما في العالم من شر . و التتريه الثاني تفريط آل إلى نسبة ما في العالم من شرور إلى نقيض صفتين من صفات التمام الإلهي أي الضرورة (ضد الحرية و الاختيار) والصدفة (ضد القصد والغاية) .

٢- زعم نفي النبوة : غفلة اللادينين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن نفيها ادعاء لما هو أكثر منها استحالة .

فنفيها يعني أمرين كلاهما مستحيل : إما أن يزعم النافي أن العقل غير محدود أو يزعم أن العقل لا يدرك حدوده فيكون حبيسها لا يتخطاها . و كلا الفرضيتين يكذبهما الواقع : فكلنا يدرك حدود عقله وكلنا يعتقد أن ذلك ليس وهما بل حقيقة أي إن العقل محدود حقا .

٣- زعم نفي التفسير الديني : غفلة اللادينيين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن هذا النفي ممتنع من غير أسطرة التفسير العلمي .

فالعلم ينقلب في هذه الحالة إلى أسطورة بمعنيين :

أ- النظريات التي تساعد على التعامل مع الظاهرات المادية مختلقات خيالية لو اعتبرت حقائق لامتنعت تاريخيتها ومن ثم لما توالت تكذيباتها اللامتناهية .

ب- لكن العلم يكون أسطورة من القوة الثانية عندما يدعي الوجود منحصرا في موضوعاته أو في ما يدركه منها فينفي من الوجود ما يتسع إليه أفق الدين .

عندئذ يكون العلم دونه الدين استجابة لحاجات الإنسان شمولا ونفاذا إلى الحقائق فيصبح أقل من الأسطورة بالمعنى الأول . فإذا اعتبرنا نظريات التفسير العلمية مخترعات بشرية كان الدين أقل من العلم أسطورية لأنه لا يشوه الوجود بل يرى فيه إبعادا لا يستطيع العلم نكرانها من دون التحول إلى أسطورة أدنى مما يزعمه في وصفه الدين .

٤- زعم نفي الشرائع المتعالية : غفلة اللادينيين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن نفي الشرائع المتعالية و حصر التشريع في الأوضاع البشرية غير ممكن من دون الخلط بين أعيان الموضوعات التشريعية وضرورة الوضع التي ليس يمكن للعمران أن يكون من دونها . فإذا كان التشريع المتعالي متعلقا بشروط التشريع وصفاته لا بمضموناته كان كل كلام اللادينين دالا على عدم فهم المتعالي ما هو ؟

و لنأخذ مثالا واحدا قد يساعد على إفهام أكثر العقول بلادة . فلا

شك أن الموازين و المقاييس والعملات مختلفة من أمة إلى أمة ومن عصر إلى عصر في نفس الأمة و لا شك أنها كلها موضوعه . لكن التعاوض الذي من أجله جعلت هذه الوسائل و شرط كونه تعاوضا حقيقيا أو غير مغشوش هل هو متعال أم تواضعي ؟ و هل يمكن للتواضع من دونه أن يحصل ؟ كيف نتواضع على المقاييس و الموازين و العملات إذا لم نكن قد انطلقنا من أن التعاوض العادل أو غير المغشوش هو أساس العمران ؟ و ليقرأ اللادينيون " المطففين " كيلا و اكتيالا لعلهم يفهمون !

٥- زعم نفي الدين أو اللادينية : غفلة اللاديينين العرب جعلتهم لا ينتبهون إلى أن اللادين مستحيل الوجود إلا من حيث هو أحد الأديان حتى و لو كان جامعا لها بالسلب .

فهي موقف وجودي و معرفي و قيمي له ثوابت عقدية حتى عند حصرها في السلوب الأربعة السابقة : الإلحاد و نفي النبوة و نفي التفسير الديني و نفي التشريع المتعالي . لذلك فهو دين : إذ ليس من ضرورة الدين أن يكون مترلا و لا من ضرورته أن يكون ذا كتاب و مؤسسات بل المهم أن توجد جماعة تدين بمنظومة معتقدات . و حتى لا يترعج أصحاب هذا الموقف فإني أنبههم أن قراءة القرآن الكريم بروية تبين أن كل هذه الآراء التي يزعمونها أمرا مهما يؤسسون عليه موقفهم لا تخلو تجربة نبي واحد من علاجها بل إني أزعم أن الرسالة المحمدية تنطلق منها للوصول إلى الدين الحق الذي ينبغي أن يتصف بصفات الإسلام أعني القول بأن الدين فطرة و بأنه شامل للإنسانية كلها و بأنه يؤمن بحرية الدين و بحق الجميع في عدم الإكراه في الدين بما في ذلك الشرك كما في آية الإرجاء و التفويض (الحج ١٧) فهي الشبهات الوجودية الأساسية التي بتدبرها يعاني المرء جوهر التجربة الدنية فتجعل الإيمان خيارا حرا لا إكراه فيه و لا عنت .

مزيد تحليل في المسألتين الأولى والأخيرة

نزل القرآن الكريم موقف اللادينيين في الجنس السادس من الأديان عندما حصر الأديان كلها وحدد منها موقف الأمة الشاهدة المبدئي (الذي قد تغيره الضرورات في التشريع الفعلي كما يحدد القانون أحيانا بعض تطبيق المبادئ الدستورية) أعني موقف الإرجاء في ما يتعلق بالمعتقد الذي لا إكراه فيه بعد تبين الرشد من الغي . فاللادينيون لسذاجتهم لم يفهموا أنهم مشركون لقولهم بفواعل خمسة يفسرون بها خروج النظام من عدم النظام في الوجود فيكونون ذوي دين و ليسوا لا دينيين : " إن الذين آمنوا و الذين هادوا و الصابئين و النصارى و المجوس و الذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة " (الحج ١٧) .

فهم يقولون بالفواعل الخمسة التالية : ١- بالضرورة ٢- و بالصدفة ٣- و بفعل الضرورة في الصدفة ٤- و بفعل الصدفة في الضرورة ٥- بخروج النظام اللاحق من اللانظام السابق من وحدة الفواعل الأربعة وحدها التي هي غيرها و من ثم فهي فاعل خامس من طبقة أرقى (و إذا اعتبرنا التفاعلين راجعين إلى المبدأين الأولين كان هذا الموقف جنيس التثليث المسيحي الذي يبني عليه هيجل كل فلسفته في التاريخ فضلا عن منطقه الذي هو ميتافيزيقاه) . و لما كنا نشك في قدرة الغافلين من اللادينيين على فهم هذا النوع من المجردات سنضرب مثال نظرية التطور التي هي الأساس الذي تنبني عليه الدهرية الحديثة كما فهمها العلامة جمال الدين الأفغاني في رده على الطبعانية :

١- فالضرورة هنا هي قوانين الوراثة الرياضية ذات التحقق الفعلي .

٢- و الصدفة هي الطفرة التكيفية ذات الأثر الفعلي .

٣- و أثر الضرورة في الصدفة هو ثبات الخاصية المطفورة في الطافر و فناء غير الطافرين .

٤- و أثر الصدفة في الضرورة هو تكيف الطافر و عدم تكيف غير الطافر .

و جملة المؤثرات هي التطور العضوي للأنواع التي تصبح سلسلة واحدة تشملها النقلة من عدم النظام إلى النظام أو من قدر أصغر من النظام إلى قدر أكبر يحقق التكيف الأفضل ليكون البقاء للأصلح في صراع الصدف .

لكن ذلك يصبح غائية عامة للظاهرات العضوية حتى لو أنكر أصحابها القول بالغائية الخاصة بالأنواع التي دخلت في السيلان الأبدي للتطور . و هم ينكرون ذلك لغفلتهم أو لسذاجتهم . إذ ما معنى الوراثة إن لم تكن قانونا ينقل الخاصيات بحسب قوانين ثابتة و يحافظ عليها بحسب تلك القوانين ؟ وكيف تكون الطفرة تكيفية إذا لم يكن بين الطفرة والبيئة (التي تخضع هي بدورها لضرورتين طبيعية وعضوية بمقتضى مقوميها المادي و العضوي) تلاق يقتضي-حتى و إن لم يكن مقصودا قبليا-حصولا بعديا للتوافق بين المحددات ؟ و أي معنى لثبات الخاصية المطفورة المحققة للتكيف بالقضاء على الخاصيات التي لا تحقق التكيف إذا لم يكن ذلك من التوافق بين توافقين إيجابي هو السابق و سلبي هو عكسه لغير الطافرين ؟ إلخ .

و في الجملة فإن نفي اللادينيين للإعجاز الذي احتاج إليه الدين مرة واحدة لتفسير النظام في الكون بعقل ناظم وخالق ينتهي إلى تعميم الإعجاز في كل صغيرة وكبيرة فيصبح كل شيء يحصل في الوجود الطبيعي و التاريخي يحصل بمعجزة يسمونها الصدفة : أليس ذلك هو عين أسطرة العالم كله أسطرة مطلقة و عودة إلى العقلية السحرية التي يرمز إليها الدين بالوثنية يعني بتعدد الخالقين و معجزات الخلق بهذه الفواعل الخمسة ؟ ! و بذلك نعود إلى مسألة الإلحاد . فلو كان الإلحاد ممكنا عقلا إمكانا صادقا خلقيا مثله مثل اللاأدرية (أي في حديث النفس مع نفسها و ليس في ما تقول و خاصة خلال كل التجارب الوجودية التي تمر بها و التي يصف القرآن الكريم بعضها عندما يلجأ المرء إلى خالقة) لكنت أول القائلين بهما . لكنهما مستحيلان صادقين . فالجمع بين التزيهين الواعي و اللاواعي اللذين أشرت إليهما في المسألة الأولى يعود إلى الدليل الوجودي مسلوبا رغم غفلة من يرى العالم مقلوبا . و عظمة القرآن أنه قد نبه إلى ذلك في أغلب آيات الاستدلال التأملي على الوجود الإلهي .

فالدليل الوجودي الموجب يقول : تصور الله أو ماهيته يقتضي وجوده أو إنيته . وبين أن هذا الدليل يضمر أن كل الموجودات الأخرى تصورها لا يقتضي وجودها . و عليه بنت الفلسفة و الكلام الإسلاميين كل الفكر الإسلامي انطلاقا من الترجيح الجهوي . فيكون الدليل الوجودي تناظر خفي بين وجودين مطلق (الخالق) و نسبي (المخلوق) . و من ثم فهو كما يقول هيجل محصلة الأدلة الثلاثة الأخرى على وجود الله : الدليل الفاعلي (فاعل النظام الوجودي) و الدليل الغائي (غاية النظام الوجودي) و الدليل الخلقي (خير النظام الوجودي)

. فهذه العناصر الثلاثة المحتاجة إلى تعليل في الموجودات المخلوقة تصبح غنية عنه في الموجود الخالق . و ذلك هو معنى أن ماهيته تقتضي وجوده .

و للنظر الآن في الإلحاد ما مدلوله ؟ أليس هو مجرد جمع لسلوب هذه الأدلة ؟ فهو دليل وجودي سلبي بالمعنى التالي . فصاحبه يقول : تصور الله أو ماهيته يقتضي عدم وجوده و عدم إنيته . و العلة أنه بخلاف صاحب الدليل الوجودي الموجب لا يضمر المناظرة بين الموجودين بل هو يعلن أن تصور الله أو ماهيته متنافية مع ما يتصف به الموجود النسبي من عدم نظام و عدم غاية و عدم خلق (نفي الأدلة الثلاثة) ؟ فهل كان العالم عامة و التاريخ خاصة يكون ما هو لو كان الله كما تحدده ماهيته عالما قادرا مريدا و خيرا ؟ لذلك فالإلحاد يستند إلى ضمير هو نقيض الشرطية المتصلة :

* لو كان الله موجودا لكان العالم كله خيرا .
* لكن العالم ليس خيرا .
* إذن الله ليس موجودا (نقيض التالي ينتج نقيض المقدم) .

و طبعا فهذا يضمر أن ماهية الله تقتضي أن يكون قادرا على جعل العالم أفضل مما هو . و طبعا فلا أحد يمكن أن يقتنع أن العالم يمتاز بالأبدعية سواء أخذناها بمفهومها عند الغزالي أو بمفهومها عند لايبنتس التي كانت موضع سخرية ديدرو و فولتار .فيكون احتجاج اللاديني و كأن لسان حاله يقول : الأفضل أن أنفي وجود الله من أن أعترف بأنه عاجز على منع الشر و الظلم و الفوضى في الوجود ! لذلك قلت إن أصل الإلحاد تنزيهية سلبية أو دفاع سلبي عن العدل الإلهي بنفي الإله غير العادل استقراء من الوجود بدل من نفي حقائق الوجود التي لا ينكرها

إلا معاند والتي يصعب أن يقبل العقل أن الله راض عنها ! أفيكون الله عاجزا عن منع ما لا يرضى عنه ؟ أم يكون الشيطان هو الأقوى ؟

ألا يستحق الإلحاد إذن أن يوصف بكونه مجرد احتجاج علته تحول وجودي السؤال إلى ثورة ببراءة الأطفال ؟ لذلك فإني اعتبر اللادينيين العرب وكل اللادينيين في التاريخ-إذا كانوا حقا صادقين في التعبير عن التجربة الوجودية التي حاولت وصفها هنا و لم يكونوا دجالين يحاولون تشويه أسمى تجارب الوعي البشري بمزح السكارى - إما أصوليين يائسين أو أطفال بائسين لم يدركوا أن الدين لم ينف كل هذه الحجج بل هو يعتبرها شرط التدين الحقيقي المحرر للإنسان من هذه الانتفاء بالفعل التاريخي .

و لولا ذلك لما اعتبر الدين الإسلامي الدين الخاتم عملا تاريخيا أساسه النظري الاجتهاد (لا العلم المطلق) و أساسه العملي الجهاد (لا مجرد التمني) و كلاهما يحصل بعملية التواصي بين المؤمنين من أجل التصدي إلى هذه الأمور : و تلك هي أمانة المستخلف و مجال حريته لتحقيق الامتحان الوجودي المطلق لبني آدم .

فأما التواصي الأول فهو تواص بالحق للوصول الاجتهادي إلى معرفة ما يحرر الوجود من اللانظام و اللاغاية و اللاخير . و أما التواصي الثاني فهو تواص بالصبر لتحقيق ذلك في التاريخ الفعلي . و تلك هي الشهادة على العالمين .

ليست القضية الدينية نزهة فكرية : إنها معاناة وجودية لمعرفة الحقيقة و لتحقيقها و ذلك هو معنى الاجتهاد و الجهاد و التحرر من السلطان الروحي و السلطان الزماني التحررين اللذين لا يحصلان بالأماني بل بالتفاني في فهم المعاني و تحقيق المباني . ألم يقل الرسول الكريم : رهبانية الإسلام هي الاجتهاد و الجهاد ؟ أما إذا اخترنا الموقف المزعوم لا دينيا و الذي بينا أنه دين من الأديان فإن النتيجة ستكون كما يلي :

١- لن يبقى معنى للاحتجاج على الشر والظلم وعدم النظام : فتلك سنن الدهر و تلك هي مفاعيل الضرورة و الصدفة .

٢- لن يبقى معنى للسعي لتغيير الأحوال بغير منطق الضرورة و الصدفة : سنعود إلى قيم كاليكلاس حيث لا قانون إلا قانون القوة و الغلبة .

و من ثم فإن اللادينية ليست لا دينية بل هي عودة إلى الطبعانية التي وصفنا في المثال الذي ضربناه من نظرية التطور . فليكن اللادينيون صرحاء و ليقولوا إنهم مع كل جبابرة العالم و سفاحيه و السلام . ألم يفاخر أحدهم وهو في قمة السعادة و السذاجة بأن النزعة من مصر الفرعونية : و ذلك هو وصف فرعون في القرآن الكريم ؟ .

نقلاً عن موقع (الملتقى الفكري للإبداع) www.almultaka.net

مع تحيات : **محمد التميمي**
mohammadaltamimi@hotmail.com